Book Reviews | مراجعات الكتب

مراجعة كتاب

دراسات حول نظم السور المكية[1]

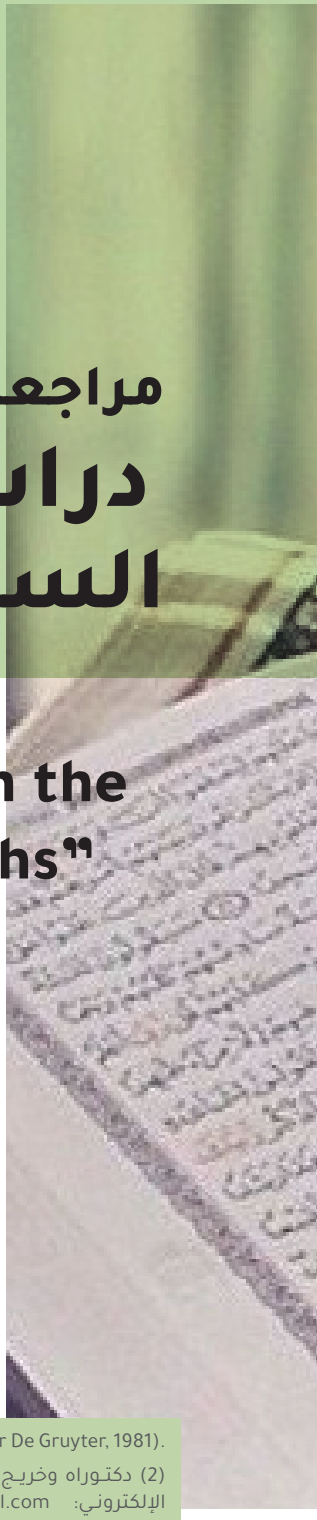

Review of the book "Studies on the composing of the Meccan surahs"

تأليف: أنجليكا نويفرت

Angelika Neuwirth

بدر الحاكيمي[2]

Badr Elhakimy

(1) Angelika Neuwirth, Studien Zur Komposition der mekkanischen Suren (Berlin & New York: Walter De Gruyter, 1981).

(2) دكتوراه وخريج مؤسسة دار الحديث الحسنية- جامعة القرويين. باحث في الدراسات القرآنية. (المغرب). البريد الإلكتروني: badr.modem@gmail.com.

تقديم:

يُعَد هذا الكتابُ **مهاد** دراسات أنجليكا نويفرت حول القرآن الكريم. وهو عبارةٌ عن أطروحةِ دكتوراه ناقشتها الباحثة بجامعة غوتنغن سنة 1972. كُتِبت في الأصل باللغة الألمانية، ولم تترجم إلى أي لغة أخرى إلى حدود اليوم، باستثناء بعض ملخصاتها التي نشرتها الباحثة باللغة الإنجليزية في موسوعة القرآن[3]. ولم يطبع الكتاب منذ صدوره إلا مرتين، صدرت الطبعة الأولى سنة 1981م، ولم تصدر الطبعة الثانية إلا سنة 2007م. تكشفُ فيه الباحثة عن طاقة وقدرة هائلةٍ في التحليل، وتتوسل في إنجازه بمنهج أدبي بنيوي وتاريخي؛ يعنى الأول بتحليل نظم السور المكية، ويراعي الثاني تطورها التاريخي.

لا تدرس نويفرت السور المكية باعتبارها وحدات مترهلة كما هو شأن الدراسات الاستشراقية السائدة، بل بوصفها وحدات كلية متناسبة شكلًا ومضمونًا. ومن ثم لم يأت هذا الكتاب في اعتقادي إلا ردا على أطروحة تفكك نص القرآن الشائعة. فمنذ صدور كتاب الألماني غوستاف فايل (**Gustav Weil**) الموسوم بـ **مقدمة تاريخية نقدية للقرآن**[4]، تباينت الآراءُ حول الأسئلةِ الجوهرية المتعلقة بالترتيب الزمني للقرآن، ونظمه، وتاريخه، واحتد هذا الاختلاف مع نشر ترجمة ريتشارد بيل **(Richard Bell)** الموسومة بـ **القرآن مترجمًا: إعادة ترتيب نقدي للسور**[5]، الذي عني فيها أيضًا بتحليل نظم القرآن وإعادة ترتيبه.

ولذلك، كان النقاد في مسيس العَوَز إلى مقاربة فاحصة وشاملة لهذه الإشكالات العالقة. وإجابة عن ذلك، صدر هذا التحليل الأدبي لنظم القرآن من طرف الباحثة الألمانية أنجليكا نويفرت سنة 1976م. إذ لم تقنع الباحثة بترداد مقولة تفكك سور القرآن، بل تبرهن على وحدتها وتماسك نظمها. ومن ثم غيرت **نسبيا** مسار الاهتمام السائد في الدراسات

(3) انظر على سبيل المثال مقالاتها الآتية:
Angelika Neuwirth, "Form and Structure of the Qur`an," in Jane McAuliffe (ed): **Encyclopaedia of the Qur'an**, vol. 2. Leiden, 2002, pp. 245 -266; A. Neuwirth, "Verse", in: Jane McAuliffe (ed): **EQ**,V. 5, Leiden &Boston: Brill, 2006, pp. 419-429; A. Neuwirth, "Sura", in: Jane McAuliffe (ed): **EQ**, V 5, Leiden &Boston: Brill, 2006, pp. 166-177.

(4) G. Weil, **Historisch-kritische Einleitung in den Koran** (Bielefeld, Velhagen & Klasing, 1844)

(5) Richard Bell, **The Qur'an Translated, with a critical re-arrangement of the Surahs** (Edinburg: Edinburg University Press, 1937/ 1939).

القرآنية في الغرب الذي ابتليت به المدرسة التاريخية النقدية ردحًا طويلًا من الزمن. فقد اشتهرت الباحثة أساسًا بتفسير نظم القرآن وبلاغته وتطوره التاريخي، ولم يذع صيتها في الأوساط العلمية إلا بعد صدور هذا العمل عام 1981م. وهو تحليل بنيوي لم يلفت انتباه دارسي القرآن منذ نشره حتى اليوم فقط، بل عُدَّ حجر الزاوية لكثير من الدراسات اللاحقة.

تتألف هذه الدراسة من 517 صفحة، تقسمها نويفرت إلى مقدمة طويلة، وأربعة فصول طوال، وملحق يتألف من 35 صفحة في آخر الكتاب، تعالج فيه النَّبْر في الشعر العربي الكلاسيكي والقرآن الكريم. بالإضافة إلى قائمة المراجع والفهارس، ونقحرة اثنين وعشرين سورة في ستين صفحة وفق عد الآي الذي تقترحه الباحثة، وتغيير مواقع بعض آي القرآن[6] .

لم تقتصر في مقدمتها على توضيح منهجها، وفرضياته، وأهدافه فقط، بل وجهت سهام النقد إلى أوجه قصور الدراسات التاريخية النقدية، ومنهج مدرسة المراجعين الجدد. أما موضوع الكتاب الذي يعنى بنظم السور المكية حصرًا بوصفها وحدات كلية، فتتناول فيه تواليا أربع مسائل كبرى في أربعة فصول، وهي: عد آي القرآن، وفواصلها، وبُنَى الآي، وموضوعات السور الجزئية والكلية.

أولًا: عد آي القرآن

يعنى **الفصل الأول** بِعَد آي القرآن[7]، تستهله نويفرت بمقدمة مهمة تبين من خلالها أنظمة عَد آي القرآن في التراث الإسلامي، اعتمادًا على دراسة مشرفها على الدكتوراه أنطون شبيتالر **(Anton Spitaler)** الصادرة سنة 1935م، والموسومة بـ **عد آي القرآن وفق التراث الإسلامي**[8]. ثم تفسر الباحثةُ المعايير التي توظفها لتحديد تقسيماتِ الآي المناسبة، وهي: الفاصلة، والبنية، والدلالة. تكرسُ هذا الفصل بكامله لمراجعة نقدية لأنظمة عد الآي في التراث الإسلامي[9]. إذ تضع قوائم لجميع تقسيماتِ الآي في خمس وثمانين سورة من السور المكية، وتقارن العد الذي اقترحه غوستاف فلوجل مع العد الكوفي وتسعة من أنظمة عد آي القرآن، وهي: العَد البصري، والدمشقي، والحمصي، والمكي، والمدني الأول والأخير، وعد نافع وشيبة بن نساب وغفار يزيد بن القعقاع. تضع لكل سورة من خمس وثمانين سورة لائحة خاصة، وتعزو كل اختلاف في العد إلى قراء القرآن العشرة وإلى عد غوستاف فلوجل، لتبرز أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم وبين العد الكوفي لقراءة حفص عن عاصم، باعتبار المكانة التي يتبوأها اليوم على المستوى الوظيفي. وبناء على معيار الفاصلة والبنية والدلالة، تحاول أن

(6) تقوم نويفرت بنقحرة عشر سور من الفترة المبكرة، وهي: القارعة، والضحى، والليل، والشمس، والأعلى، والمطففين، وعبس، والنازعات، والقيامة، والحاقة، وسبع سور من الفترة المتوسطة، وهي: الإنسان، والقمر، وق، والفرقان، والأنبياء، ومريم، والحجر، وخمس سور من الفترة المتأخرة، وهي: الملائكة، والسجدة، والروم، والرعد، وهود.

(7) pp. 11- 63

(8) Anton Spitaler, **die verszahlung des koran im islamischer Überlieferung** (Munich: Bayerischen Akademie der Wissenschaften, 1935).

(9) pp. 21- 63.

تحدد من وجهة نظرها تقسيم الآي الأصلي أو الصحيح. وتبعا لهذه المعايير، تُغيِّر التقسيم الكوفي في ست وثلاثين سورة مُحْدِثة ستين تغييرًا[10]. وهذا التغيير بالزيادة أو النقصان إما تغيير جذري، أو تستند فيه إلى أحد قراء القرآن العشرة المذكورين أعلاه. وقد وجدت سندًا ودعمًا فيما يقارب نصف الحالات من واحد أو أكثر من هؤلاء القراء العشرة. ومن بين الأمثلة التي تحدث فيها تغييرًا بالنقص سورة الماعون التي حددت آياتها في ست، خلافًا للعد الكوفي الذي يحددها في سبع، وتعتمد في ذلك على العد الدمشقي والمكي والمدني الأول والأخير الذي لا يعتبر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾ آية مستقلة. ومن أمثلة السور التي يحدث فيها تغيير بالزيادة سورة التين رغم اتفاق جميع أصحاب العد بمن فيهم غوستاف فلوجل على أن عدد آياتها هو ثمان، إلا أن نويفرت لم تعتبر الآية الأولى من السورة آية واحدة بل آيتين، وهي: {وَالتِّينِ (1) وَالزَّيْتُونِ (2)} [التين: 2 - 1][11]. وبذلك تغير عدد آي السورة إلى تسع آيات.

وتتغيا من وراء هذه المراجعة أن تسهم في إتمام مشروع إنتاج نص نقدي للقرآن، الذي ابتدأه الألماني ثيودور نولدكه، وفريديريك شفالي، وغوتلف برجستراسر وأوتو بريتزل وأستاذها ومرشدها أنطون شبيتالر. غير أن نتائجها في هذا الفصل لم ترق إلى المستوى العلمي المطلوب؛ لأن الأسباب التي تقدمها لقبول بعض تقسيمات الآي البديلة أو رفض أخرى يبدو منذ القراءة الأولى اعتباطيا؛ إذ تُجَزئ بتعسف مقاطع السور إلى ثلاث لإثبات وحدتها الثلاثية. ثم عند قراءة الأجزاء المتأخرة للكتاب، يخيم الشك على المشروع بكامله عندما يظهر جليًا أن هذه التغييرات في تقسيم الآيات الكوفية يخدم هدفًا آخر ينقله من العلمية إلى الأيديولوجية.

(10) Ibid., p. 13.

(11) Ibid., p. 33.

ثانيًا: فواصل الآي

يتناول **الفصل الثاني** تحليلًا إحصائيًا مُفَصَّلًا لفواصل الآي في خمس وثمانين سورة[12]. ولم تدرس نويفرت أنواع هذه الفواصل بمعزل عن بعضها البعض، أو في إطار السورة كلها مثل نولدكه وشفالي، بل تدرسها في إطار مجموعات الآي الصغرى[13]. وبناء على ذلك، تُصنِّف فواصل هذه السور إلى ثلاثة أنواع كبرى[14]، **أولاها:** فاصلة المقطع الأخير من الكلمة (**Ultima-Betonte Reim**)؛ **ثانيها:** فاصلة المقطع ما قبل الأخير (**Penultima-Betonte Reim**)؛ **ثالثها:** فاصلة المقطع الثالث ما قبل الأخير (**Antepenultima-Betonte Reim**)[15].

(12) Neuwirth, **Studien**, Pp. 65- 115.

(13) Ibid., pp. 67- 76.

(14) تتحدد الفاصلة عند نويفرت حسبَ الحرف المشدد سواء على المقطع الأخير **(ultimate)**، أو ما قبل الأخير **(penultimate)**، أو الثالث ما قبل الأخير **(antepenultimate)**.

(15) يدل مصطلح ألتيما **(Ultima)** في اللسانيات على المقطع الأخير من الكلمة، في حين يَدل لفظ بنالتيما **(Penultima)** على المقطع ما قبل الأخير، أما مصطلح أنتبنلتيما **(Antepenultima)** فيشير إلى المقطع الثالث ما قبل الأخير. ينظر:
P. H. Mathews, **The Concise Oxford Dictionary of Linguistics**, 2nd edition (Oxford: Oxford University Press, 2007).

ثم تُقسّم هذه الأنواع **الثلاثة الكبرى** إلى **اثني عشر** نوعا، وتُقسم **هذه الأنواع أيضا** إلى **ثمانين نوعًا** في الفترة المكية المبكرة[16]، و **سبعة عشر نوعًا** في الفترة المتوسطة[17]، **وثمانية أنواع** في الفترة المكية المتأخرة[18]؛ وهذا يعكسُ في نظرها تطورًا بنيويًا لنص القرآن الكريم. وأخيرًا تصنف هذه الفواصل الكلية والجزئية لكُل آيةٍ أو مجموعة من الآي في جداول تضم المراحل المكية الثلاث[19].

ترمز نويفرت إلى هذه الفواصل بجملة من الرموز، فعلى سبيل المثال، ترمز إلى بعض فواصل المقطع الثالث ما قبل الأخير بـ **(āCaCā)** ويدل الحرف **(ā)** على الألف الممدودة، و (C) على حرف صحيح، ثم يدل حرف (a) على حرف علة قصير، مثل قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥﴾ [الغاشية: 1 - 5].

أما فيما يتعلق بفواصل سور المرحلة المتوسطة والمتأخرة، فتتفق نويفرت مع نولدكه[20] على أن أغلب آياتها تنتهي فاصلتها إما بـ [ون] أو [ين] وهو ما يسمى بمد اللين، أو [يم]، وهو ما يسمى بالمد العارض للسكون، وترمز لها نويفرت بـ (-2m/n) حيث يشير [-2] إلى حرف العلة الطويل مثل [و] أو [ي] ويشير حرف[m] إلى الحرف الصحيح [م]، في حين يُشير حرف [n] إلى الحرف الصحيح [ن]. ومن أمثلتها: [الضالين] (āCC2n) و[يسألُون] (3C2n).

وتأتي هذه الفواصل كاملة أو متفرقة في المرحلة المكية المتوسطة في ثلاث عشرة سورة. تأتي كاملة في ثمان سور وهي: الحجر، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والنمل، ويس، والزخرف، والدخان، وتأتي متفرقة في خمس سور وهي: مريم: 40 -34، والصافات: 180 -12، وص: 88 -67، والملك: 30 -24، ونوح: 1-4. بينما في المرحلة المكية المتأخرة تأتي في ثمان عشرة سورة. تأتي كاملة في إحدى عشر سورة وهي: سورة الأنعام، والأعراف، ويونس، والنحل، والقصص، والعنكبوت، والروم، والسجدة، والأحقاف، والجاثية، ويوسف. وتأتي متفرقة في سبع سور وهي: هود: 56 -6 و 111- 123، وغافر: 85 -56، وفصلت: 40 -2، والرعد: 5 -1، ولقمان: 11 -2، وسبأ: 42 -28، والزمر: 75 -24.

ورغم قيمة هذا **التحليل الاستقرائي المفصل في التحليل البنيوي** للسور المكية، إلا أن الإشكال الوحيد هو اعتماده على تقسيم الآي الذي ابتكرته نويفرت. وستكون هذه الجداول قيمة للدراسات اللاحقة لو اعتمدت على نص حفص عن عاصم الكوفي. ومن ثم لن يفيد هذا الاستقراء للفواصل إلا من يقبل تقسيم الآي الذي تقترحه نويفرت.

(16) Neuwirth, **Studien**, Pp. 91- 95.

(17) Ibid., pp. 97- 100.

(18) Ibid., pp. 97- 100.

(19) Ibid., pp. 91- 97.

(20) نولدكه، **تاريخ القرآن**، ترجمة: جورج تامر، ط.1 (بيروت: كونراد إدناور، 2004) ص37.

ومن خلال ما تقدم، تخلص نويفرت إلى أن فواصل السور المكية المبكرة تتألف من **ثمانين** نوعًا، وتتألف السور المكية المتوسطة من **سبعة عشر** نوعًا، أما السور المكية المتأخرة فلا تتألف إلا من **خمسة** أنواع. ولا يدل هذا التفاوت في الفواصل بين المراحل المكية الثلاث في رأيها إلا على **البعد التعاقبي** لتطور بنى القرآن المرافقة لتطور المجتمع. ويرجع **السبب الرئيس في** تنوُّع هذه الفواصل وتطوُّرها كرونولوجيا من الأكثر إلى الأقل في نظام تنازلي إلى **أسلوب القرآن الكريم**؛ إذ يتكاثر إهمال استعمال الفاصلة شيئا فشيئا؛ لأنه لا يتناسب والنبرة النثرية الموجودة في المقاطع المتأخرة. ولا يؤثر هذا التنوع في الفواصل في المعاني وسياق الأفكار فحسب، بل يؤثر أيضا على بنى الآي. فكما أن أسلوب القرآن يتطور تدريجيًا من الكثافة إلى النثر، فإن فواصله تتطور أيضا من الكثرة إلى القلة. علاوة على ذلك، لا يقتصر هذا التطور على الأسلوب والفاصلة فحسب، بل تتطور بنية آيات القرآن أيضا من الإيقاع القصير إلى الإيقاع الطويل حسب المراحل المكية الثلاث التي تقترحها نويفرت.

ثالثًا: بنى آي القرآن

يقدم الفصل الثالث تحليلًا دقيقا لبنى آي السور المكية[21]. تقسم نويفرت هذه البنى إلى ثلاثة أنواع كبرى:

أولاها: آيات ذات المقطع الواحد **(Monopartite)**، ويُقصَد بها الآيات التي تتألف من كولون واحد **(Kolon)**؛ أي جملة تامة[22]، أو آية تركيبية **(Syntagmen verse)** وهي الجملة غير التامة[23].

ثانيها: آيات متعددة المقاطع **(Multipartite)**، وتقسمها نويفرت إلى ثلاثة أنواع، آيات تتكون من مقطعين (جملتين) **(dicola)**؛ وآيات تتكون من ثلاثة مقاطع **(tricola)**؛ وآيات تتألف من مقاطع متعددة تتجاوز بنيتها أربع جمل فأكثر **(mehrgleidrige Vers)**. وتبتدئ من بداية الفترة المكية المتوسطة فصاعدا[24].

ثالثها: آيات التعقيب أو المقطع الختامي **(clausulae)** وهو أسلوب إيقاعي ختامي يأتي في آخر الجملة، **يتميز عن سياق المقطع القرآني، و يقدم نوعا من التعليق الحجاجي والأخلاقي عليه**. وهي خاصية من خصائص السور المكية المتأخرة، وينتهي في الغالب بـ [ون] أو [ين] أو [يم]. وتسميها نويفرت أيضا بالنغمة الختامية أو الإيقاع الختامي **(cadenza)** قياسًا على الجزء الأخير من وحدات الخطاب في الإنشاد الغريغوري. وينحصر هذا التعليق الأخلاقي أو الحجاجي الذي تقدمه آيات التعقيب في نظر نويفرت في معنيين: **أولهما: الحث على السلوك الأخلاقي الإنساني وتربية المجتمع**؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا

(21) pp. 117- 174.

(22) Neuwirth, **Studien**, pp. 146- 152.

(23) Ibid., Pp. 124- 145.

(24) Neuwirth, **Studien**, pp. 153- 156.

عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]، **ثانيهما: الدلالة على العناية الإلهية وقدرة الله تعالى المطلقة**: وغالبًا ما تأتي في صفة من صفات الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1].

وعموما تُصنف نويفرت الآيات إلى ثلاثة أنواع: آيات تتألف من مقطع واحد؛ وهي خاصية السور المبكرة، وآيات متعددة الأجزاء، وآيات التعقيب، وهما خاصيتا السور المتوسطة والمتأخرة. غير أن نتائجها رغم أهميتها تظل نسبية وغير مطردة؛ لأن بعض الآي في نهاية الفترة المبكرة تتجاوز ثلاثة مقاطع، وتتألف بعض الآيات في السور المتأخرة من أكثر من عشر مقاطع، مثل الآية 93 و 152 من سورة الأنعام، والآية 31 من سورة الرعد، والآية 143 من سورة الأعراف. ويتجلى قصور منهجها أيضا في أنها اتخذت الترتيب الزمني الرباعي للسور الذي اقترحه نولدكه بوصفه مسلمة دون إخضاعه لفحص نقدي عميق، مع العلم أن نولدكه نفسه اعترف بنسبية تأريخه في الطبعة الثانية من كتابه، بقوله: "بعض ادعاءاتي، التي بدت في ذلك الوقت مؤكدة تمامًا، تبين بعد فحص جديد ودقيق أنها غير صحيحة"[25].

(25) Nöldeke, **The History of the Qur'an**, Translated by Wolfgang H. Behn (Leiden & Boston: Brill, 2013) p. 61.

رابعًا: موضوعات السور

تتناول نويفرت في الفصل الرابع نظم السور ونظم أجزائها المكونة لها[26]. وتعد خلاصات هذا الفصل وتوصياته في اعتقادي أقل إقناعًا مقارنة مع فصول الكتاب الأولى. تستهله نويفرت بالرد على رأي ريتشارد بيل القائل بأن: "أغلب السور تتكون من مقاطع متعددة مترهلة، ولا تظهر في الغالب أي نظم كلي أو جزئي واضح للمواضيع التي تعالجها"[27]. ومن ثَم تؤكد على أن الهدف الرئيس من بحثها هو دحض أطروحة بيل المتعلقة بتفكك نظم سور القرآن. ولإبراز **نظم** هذه السُّوَر استعارت بدون وعي مصطلح **الوحدة الموضوعية (Gesätz)** الذي وظفه الألماني ألفرد بلوخ **(Alfred Bloch)** في **دراسة الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها القصيدة العربية القديمة**[28]، لتنتهيَ إلى أن سور **الفترة المكية المتوسطة والمتأخرة** تَنظِمها **وحدات موضوعية** مثل الأجزاء الثلاثة للقصيدة. وبناء على تقسيم بلوخ للقصيدة، تُصنِّف نويفرت زمنيًا مواضيع وحدات السور المكية في خمس وثمانين سورة، وتحصرها في **عشرة مواضيع رئيسة**، وهي: **أولًا**: القَسَم، و**ثانيًا**: مجموعة إذا، و**ثالثًا:** مقاطع افتتاحية أخرى للسور (21 سورة)، **ورابعًا:** الأخرويات، و**خامسًا**: دروس وعبر من التاريخ، و**سادسًا**: مقاطع إنشادية، و**سابعًا**:

(26) ص- 175 321.

(27) Richard Bell, **Introduction to the Qur'ān** (Edinburgh: Edinburg University Press, 1953) p. 71.

(28) Alfred Bloch, "Qasida", in **Asiat. Studien**, 2/1948/ 106- 132

مواعظ للرسول والمؤمنين، و**ثامنًا**: مقاطع جدلية، و**تاسعًا**: إثبات الوحي، و**عاشرًا**: أدعية ختامية أو أوامر ختامية[29].

تخلص نويفرت إلى أن السور المكية المتوسطة والمتأخرة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء متناسبة. ولا تعالج إلا أربعة مواضيع رئيسة، وهي: إثبات الوحي، والقصص، والتراتيل، والحجاج. يؤطر موضوع إثبات الوحي تسعة عشر سورة، ويأتي القصص في محورها. وتؤطر سبع سور أيضًا بموضوع إثبات الوحي دون ذكر القصص في وسطها، ثم يأتي أيضا في خاتمة أربع سور وهي: الإنسان والروم والنحل وفاطر، ولا يأتي إلا مرة واحدة منفردًا في مطلع سورة الجاثية[30]. وهذا يعني أن موضوع الوحي يتصدر قائمة مواضيع السور المكية المتوسطة والمتأخرة في واحد وثلاثين سورة من مجموع اثنين وأربعين، ويذكر فيها سبعا وخمسين مرة.

أما موضوع القصص فيُذكَر سبعًا وعشرين مرة في وسط السورة، ومرتين مهيمنا على السورة ككل من بدايتها إلى نهايتها كما في سورةِ نوح والجن. بينما يأتي موضوع التراتيل مُؤَطرًا لثلاث سُوَر، ويأتي في مطلع أربع سور، ومن ثمَّ يُذكر عشر مرات، أما الحجاج فيأتي مؤطرًا لست سور، ومن ثم يُذكرُ اثنا عشر مرة.

وهكذا تتناول السور المتوسطة والمتأخرة في رأي الباحثة أربعة مواضيع كبرى مرتبة تواليا على الشكل الآتي: إثبات الوحي، والقصص، والتراتيل، والحجاج. ومع ذلك، لنا أن نتساءل هل السور المتوسطة والمتأخرة جميعها لا تتألف إلا من هذه المواضيع الأربعة الكبرى؟ وهل تقبل السور المتأخرة جميعها هذه التقسيم الثلاثي؟

رغم قيمة هذا التحليل الدقيق المفصل وأهميته لبنى السور المكية ومواضيعها، إلا أن تحليل مضامين هذه السور لا يدعم دفاعها المستميت عن تقسيمها إلى ثلاث وحدات موضوعية مثل موضوعات القصيدة. فقليل من السور التي يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسة، علاوة على أن مواضيعها تختلف عن مواضيع القصيدة. فالمقاطع الطويلة لطوال السور، مثل مطلع سورة هود وخاتمتها، تحتوي على خلط من المواضيع، ولا يمكن تصنيفها بسهولة مثل المقاطع الحجاجية أو إثبات الوحي كما تفعل نويفرت. علاوة على ذلك، تشيرُ أغلب السور إلى أنها أكثر تعقيدًا من أن تقسم إلى ثلاثة أجزاء. ولا يطال هذا التقسيم الثلاثي السورَ المتأخرة فقط، بل تقسم نويفرت أيضا كثيرًا من السور المكيةِ المبكرة إلى ثلاثة أجزاء؛ وهذا يدل على عدم نسقية منهجيتها. أما السور القصيرة جدًا فلا ينطبق عليها هذا الشكل الهندسي.

أما فيما يتعلق بمسألة **التناسب**، فتنتهي الباحثة إلى أن السور المكية تتألف من وحدات مرتبة وفق أنماط عددية، غالبًا ما تشكل تناسبًا متوازنًا. ومن الأمثلة التي تسوقها بتكرار في

(29) Neuwirth, **Studien**, p. 187- 201.
(30) Neuwirth, **Studien**, p. 242.

مقدمة كتابها[31] ، وفي كثير من مقالاتها[32]، سورة النازعات التي تتألف من الوحدات التالية: 5+9// 6+6+9//6+5؛ وسورة البروج التي تتكون من المجموعات الآتية: 6+5+5+6؛ وسورة البلد التي تتكون من المجموعات الآتية: 4+6+6+4؛ وسورة الزخرف التي تتكون من المجموعات الآتية: 24 // +20 24//20. وسورة المعارج التي تتألف من المجموعات الآتية: 3+3//7+7+14//3+3+3؛ وسورة عبس: 3+10// (3+8) (3+8)//8؛ وسورة القيامة: 6// 6+6+6 //5+5//5.

نأخذ على سبيل المثال، سورة الشورى التي تنتمي في رأي نويفرت إلى المرحلة المكية المتأخرة. نلحظ أن نويفرت تضيف إلى السورة آية بخلاف جميع أصحاب العد بمن فيهم غوستاف فلوغل، وهي قولـه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13][33]. تنتهي فواصل السورة دائمًا بحرف المد الواو أو الياء، متبوعًا بحرف ساكن متغير باستثناء فاصلتين؛ إذ تنتهي الآية 32 بالألف والميم، وتنتهي الآية 15 التي أضافتها بالألف والباء [34].

بعد تغيير عد الآي وإحصاء الفواصل، تقسمها إلى ثلاثة أجزاء رئيسة[35]، يتألف الجزء الأول من ست آيات دون عد الحروف المقطعة (حم عسق)، ويتناول موضوع إثبات الوحي والتراتيل، أما الجزء الثاني فتقسمه إلى قسمين فرعيين: أ. يتناول الجدل حول الشرك، ويتألف من قسمين يتألف كل واحد منهما من ثمان آيات. و ب. يتناول موضوع الآيات وقائمة من الفضائل، ويتألف من قسمين فرعيين يتكون كل منهما من اثني عشر آية؛ في حين يتناول الجزء الثالث موضوع قدرة الله المطلقة، وإثبات الوحي، في شكل خاتمة تتألف من ست آيات. ومن ثم فالبنية الكلية للسورة هي 6-40-6، وهو نمط متناظر يتألف من ثلاثة أجزاء مع تناظر بين مقدمة السورة وخاتمتها، وتناظر داخلي في الجزء الأوسط الذي يتألف من 8 + 8 و12 + 12.

لكن الملاحظ أن أغلب السور لا تتكون من هذا التناسب المتوازن، بل لا تتألف جميعها إلا من أنماط عددية غير متناسبة. فلو استطاعت أن تبرهن على أن أغلبها أو بعضها مرتب وفق أنماط عددية متوازنة، فسيكون اكتشافا كبيرا وخطوة جوهرية جديدة في فهمنا لنظم القرآن. لكن لسوء الحظ، أدلتها غير مقنعة. إذ لا تشكل الوحدات في أغلب السور تناسبًا عدديًا حقيقيًا. ومن بين الأمثلة على ذلك، تقسيمها لسورة الروم إلى الوحدات الآتية: [1] 5+12+11//13+8//9؛ ولم تعتبر الحروف المقطعة (ألم) آية.

ومن ثم تبدو مجموعات الآي في أغلب السور أنها مرتبة وفق أنماط عددية غير متناسقة.

(31) A. Neuwirth, **Studien**, p. 6.

(32) A. Neuwirth, "Sura", in *The Encyclopedia of The Qur'an*; "Verse", in *The Encyclopedia of The Qur'an*; "Form and Structure of the Qur'an," in *The Encyclopedia of The Qur'an*.

(33) Neuwirth, **Studien**, p. 62- 3.

(34) Ibid., p. 83.

(35) Ibid., p. 311- 12.

علاوة على ذلك، ثمة إشكالات كثيرة فيما يتعلق بعَدِّ الآي، والإشكالُ العصي هو أنَّ هذه الأنماط العددية المتوازنة تتحقق أحيانا نتيجة للتغييرات التعسفية التي تُحدِثُها نويفرت في تقسيم الآي، فلم تعتبر مثلا وَزَرَ فاصلة في سورة القيامة[36]، في حين تعتبر خاف فاصلة في سورة النازعات[37]، وعقروها في سورة الشمس[38] بهدف تحقيق التوازن العددي بين أجزاء السورة.

ولذلك لا تعدو تغييراتها المقترحة من الناحية العملية في تقسيم الآي[39] مجرد تحسينات في الأنماط العددية[40]. ويصعب قبول النتيجة الآتية، وهي: أن الأنماط العددية المتوازنة للسور لا تتحقق إلا بفعل تغييراتها التعسفية في تقسيم الآي. ويتبين أيضا أن تقسيماتها للسور في بعض الحالات اعتباطي، خاصة عندما تدمج عدة وحدات صغيرة لتقسم السور إلى ثلاثة أجزاء رئيسة.

إضافة إلى ذلك، ثمة سؤال مستفز حول انتقاء نويفرت للسور التي تعالجها. فالقارئ يلاحظ بدون شك أن نويفرت لا تقصد بمفهوم السور المكية إلا السور التي تعالجها في كتابها الموسوم بدراسات حول نظم السور المكية. لكن الإشكال هو أن نويفرت لم تعالج سوى 85 سورة، وحذفت عدة سور يعتبرها التراث الإسلامي سورًا مكية مثل سورة الفاتحة، والكافرون، الإخلاص، والفلق، والناس، بينما أدرجت أربع سور اعتبرها نولدكه مكية، ولكنها مدنية وهي سورة الرعد، والرحمن، والإنسان، والزلزلة. ومن ثم يمكن أن نتساءل حول صحة مفهوم السور المكية نفسه والفرضية القائلة بأن السور يمكن أن ترتب ترتيبًا زمنيًا، وتُقَسَّم إلى أربع فترات محددة؟ وهكذا نرى أن الرأي النقدي الغربي حول الترتيب الزمني للقرآن ونظمه وتاريخه ظل منقسمًا، ولم يحقق بعد إجماعًا ولو على مسألة واحدة، وهذا مرده في نظري إلى المركزية الغربية التي لن تعترف بالنموذج التأويلي الذي يقدمه التراث الإسلامي، وتسعى جاهدة إلى تقديم بديل مفترض جديد.

خاتمة:

أعتقد أن دراسة فاحصة لهذا الكتاب ستكون مثمرة لطلاب الدراسات القرآنية الغربية؛ لأنه أحدث **نسبيًا** نقلة نوعية في دراسة نظم سور القرآن الكريم، بوصفها وحدات كلية متناسقة شكلًا وموضوعًا. ومن ثم لن نفيد منه في تعزيز إعجاز نظم القرآن الكريم وهندسة بنائه وإبراز جمالياته الأسلوبية والشكلية، وتلمُّس مقصود السورة وعمودها فقط، بل في القلب التام للصورة التفكيكية الاختزالية التي تتسَيَّد الدراسات الاستشراقية التقليدية.

(36) Neuwirth, **Studien**, p. 28/216.
(37) Ibid., p. 79/218.
(38) Ibid., p. 33/228.
(39) Ibid., p. 117- 73.
(40) Ibid., p. 175- 318.